الإمام أبو حنيفة النعمان ومنهجه في النظر الفقهي

يُعد الإمام **أبو حنيفة النعمان بن ثابت** (80–150هـ) مؤسس أقدم المذاهب الفقهية الأربعة من حيث التدوين والاستقرار، وأحد أبرز الأئمة المجتهدين في تاريخ التشريع الإسلامي. وقد جمع بين الفقه والكلام والجدل، وكان له تأثير بالغ في تشكيل معالم الفقه العراقي، ثم تطور مذهبه على أيدي كبار تلامذته حتى استقر مذهبًا فقهيًا شامخًا عُرف بـ**المذهب الحنفي**.

أولًا: نسبه ونشأته

ولد الإمام أبو حنيفة بالكوفة سنة 80هـ، ونشأ في بيئة علمية نشطة، خاصة وأن الكوفة كانت من أبرز مراكز الفقه والحديث في ذلك العصر، وقد استقر فيها عدد من كبار الصحابة، وعلى رأسهم عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، الذي كان له أثر كبير على المدرسة الفقهية الكوفية.

وقد روى المؤرخون أنه أدرك بعض الصحابة كأنس بن مالك، وسهل بن سعد، وأبو الطفيل، لكنه لم يُثبت عنه أخذ العلم مباشرة عن أحدهم، بل كانت **نشأته العلمية** الأولى في مجال **علم الكلام** والمناظرة، قبل أن يتجه إلى الفقه بتوجيه من الإمام الشعبي (الذهبي، 2001، ج6، ص. 390).

ثانيًا: رحلته في طلب العلم

تتلمذ أبو حنيفة على يد **حماد بن أبي سليمان** (ت: 120هـ)، الذي ورث فقه **إبراهيم النخعي**، عن **علقمة بن قيس**، عن **ابن مسعود** .وقد لازم حمادًا قرابة 18 سنة، حتى توفي، فخلفه أبو حنيفة في حلقته، وصار **إمام فقهاء العراق بلا منازع**.

كان أبو حنيفة ملمًّا بعلم الحديث، لكن اشتهر عنه قلة الرواية، بسبب **تشديده في قبول الأخبار**، لا سيما مع انتشار الوضع في الحديث بالكوفة. قال الذهبي: "كان أبو حنيفة من أئمة الحديث، لكنه كان يحتاط في الرواية" (الذهبي، *طبقات الحفاظ*، ص. 179.(

ثالثًا: مؤلفاته

لم يترك أبو حنيفة مؤلفات كثيرة، لكن نُسبت إليه كتب منها:

- *الفقه الأكبر* :في أصول العقيدة.
- *العالم والمتعلم* :في الحوار حول مسائل العقيدة والفقه.
- *مسند أبي حنيفة* :جمع فيه بعض رواياته الحديثية.

ومعظم فقهه وصل إلينا **من خلال تلامذته**، وعلى رأسهم: أبو يوسف القاضي، ومحمد بن الحسن الشيباني، وزفر بن الهذيل، والحسن بن زياد، وغيرهم.

رابعًا: شهادات العلماء فيه

- قال الإمام مالك: "رأيت رجلاً لو كلمك في هذه السارية أن يجعلها ذهبًا، لأقام حجته" (الخطيب البغدادي، 2001، ج13، ص. 356).
- وقال الشافعي: "الناس عيال في الفقه على أبي حنيفة."
- وقال سفيان الثوري: "كان أبو حنيفة أفقه أهل زمانه."
- وقال الليث بن سعد: "إنه لفقيه يا مصري!" في حوار له مع الإمام مالك.

خامسًا: منهجه في النظر الفقهي

لم يدوّن أبو حنيفة أصول مذهبه، لكن تم **استنباطها من فتاويه و أقواله** .وقد ورد عنه في *تاريخ بغداد* قوله:

"آخذ بكتاب الله، فإن لم أجد، فبسنة رسول الله ﷺ، فإن لم أجد في كتاب الله ولا سنة، أخذت بقول من شئت من أصحاب النبي ﷺ... فإن انتهى الأمر إلى غيرهم من التابعين، اجتهدت كما اجتهدوا."

أبرز معالم منهجه:

1. **التمسك بالقرآن والسنة**، مع التشدد في قبول الحديث، خاصة إذا خالفه عمل أهل الكوفة أو مخالف مشهور.
2. **توسيع مجال الرأي والقياس**، بسبب قلة الروايات المقبولة عنده، واعتمادًا على النقل عن ابن مسعود.

3. **استعمال الاستحسان** :كوسيلة ترجيح بين الأدلة عند التعارض.
4. **الاعتماد على العرف والعادة**، بما لا يخالف النص.
5. **الابتعاد عن الفقه الافتراضي إلا بقدر الضرورة**.

سادسًا: نظامه في التدريس والاجتهاد الجماعي

امتازت حلقة أبي حنيفة بأنها **مدرسة شورى واجتهاد جماعي** .لم يكن الإمام يُملي الرأي وحده، بل كانت المسائل تُعرض في المجلس، وتُناقش حتى تستقر، ثم تُثبت في *الأصول* .وكان التلاميذ يشاركونه في بناء المذهب. وقد نقل الموفق المكي أن "أبا حنيفة لم يستبد برأيه، بل وضع مذهبه شُورى بينهم" (السرخسي، 1993، ج1، ص. 45).

وهذا الاجتهاد الجماعي هو أحد أسرار **تماسك المذهب الحنفي** وقدرته على ضبط الفروع بأصول دقيقة.

سابعًا: وفاته

توفي الإمام أبو حنيفة سنة 150 هـ، بعد حياة علمية مليئة بالعطاء، ودفن في بغداد في مقبرة سُمّيت لاحقًا باسمه (الأعظمية). وقد خلّف مدرسة فقهية عريقة، ظلت **المذهب الرسمي في الدولة العباسية**، ثم في الدولة العثمانية، وما تزال معتمدة في بلاد واسعة كتركيا، وآسيا الوسطى، والهند، وغيرها.

خاتمة

الإمام أبو حنيفة هو أول من بنى **مذهبًا فقهيًا منضبطًا** على أصول محددة، يجمع بين **التمسك بالنص، والتوسع في الرأي والقياس مع الاحتياط في الرواية** .وقد وُصف بأنه "فقيه العراق، وأفقه الأمة في الرأي"، ولا تزال مدرسته الفقهية من أكثر المذاهب الفقهية تأثيرًا وانتشارًا في العالم الإسلامي.

المراجع:

- الذهبي، شمس الدين .(2001) .*سير أعلام النبلاء* .بيروت: مؤسسة الرسالة.

- الخطيب البغدادي .(2001) .*تاريخ بغداد* .تحقيق: بشار عواد معروف. بيروت: دار الغرب الإسلامي.
- السرخسي، محمد بن أحمد .(1993) .*أصول السرخسي* .بيروت: دار المعرفة.
- الذهبي .*طبقات الحفاظ*.